نقد المنهج البنيوي في تحليل النص التراثي

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى أن تقدم قراءة نقدية للمنهج البنيوي في تحليل النص الأدبي بعامة، والتراثي بخاصة بعد أن مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة من التطبيق، وذلك بقصد الوقوف على القيمة العلمية والفنية التي قدمها هذا المنهج بعد أن أخذ الجدل حوله أبعادا متعددة ومختلفة. وستركز هذه القراءة على الإنجازات التطبيقية، وعرضها وتحليلها بطريقة منهجية وموضوعية.

د. موسى شروانة
كلية الآداب واللغات
جامعة قسنطينة 1
الجزائر

مقدمة

يقول أحد العارفين بحركية تطور الشعوب والأمم:"إن التراث قوة دافعة لحركة التطور الاجتماعي، وليس عائقا، لأنه ينطوي على عناصر اتصال الهوية القومية، ولكن يحدث أن تكون النظرة إليه، أو تأويله على نحو معين، عائقا للحركة ". (1)

هذه حقيقة لا خلاف فيها، وذلك لأن النظرة الأحادية للتراث هي نظرة قاصرة، وعرجاء. وقد أكد لنا التاريخ المعاصر أن كثيرا من الشعوب والأمم التي حققت طفرة نوعية في حياتها المعاصرة – مثل الصين واليابان- هي التي عملت على إحياء تراثها، ثم فتحت الباب على مصراعيه لإقامة حوار معه برؤى ومناهج معاصرة.

ومن هنا فإن (الدعوة) (2) إلى معالجة النص التراثي وفق الرؤى والمناهج النقدية المعاصرة، لا تنطوي فقط على الإحساس بهذه الأهمية للتراث في صناعة الحاضر، وصياغة المستقبل، وإنما تتجاوز ذلك إلى طرح جملة من الدلالات يمكن الإشارة إليها بإيجاز في النقاط التالية:

Résumé

Cette étude est une lecture critique du structuralisme, en tant que méthode appliquée dans l'analyse du texte littéraire en général, et patrimonial en particulier. Elle vise, entre autres, à évaluer cette méthode qui, durant son long parcours, estimé à plus de trente ans, a fait l'objet d'une polémique virulente et multiforme.

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر2012.

1- التأكيد مرة أخرى على الانتماء إلى التراث الأدبي والفكري، وهو ما ينفي الانسياق وراء الدعوة إلى إنكاره أو إحداث القطيعة معه.

2- الشعور بالمسؤولية إزاء هذا التراث، إذ لا يكفي الاستمرار في تمجيده والتغني بما تحقق فيه من إنجازات كانت ومازالت في كثير من جوانبها مثالا جيدا للبناء الثقافي والحضاري، وإنما العمل على تجديد الصلة به بالسعي إلى دراسته وتطويره لخدمة الواقع الاجتماعي والثقافي الجديد.

3- ضرورة الانفتاح على المناهج المعاصرة في دراسة هذا التراث حتى لو كانت هذه المناهج (مبتورة) (3) أو غريبة عن تراثنا كما وصفها بعضهم. إن هذا الأمر في غاية الأهمية حيث إنه يوحى بعدم الشعور بالنقص في التعامل مع ما هو وافد من البيئات الأجنبية ولنا في هذا سابقة إيجابية في تعامل القدماء مع الثقافات والحضارات القديمة. ثم إن إنجازات الآخرين ليست، في نهاية المطاف، إلا تراثا إنسانيا ومن حق الشعوب كلها أن تفيد منه سواء بالقليل أم بالكثير باعتباره قيمة وخبرة عامة.

تلك هي بعض الدلالات التي أوحت بها الدعوة إلى دراسة النص التراثي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة. وهي دعوة موفقة- دون شك- بصرف النظر عن القيمة العلمية والفنية التي يمكن أن تفيد منها الدراسة الأدبية. ولعل أول ما تفيد به هذه الدعوة هو إقامة هذا النوع من الحوار الجاد مع كل التيارات والاتجاهات النقدية والفنية لأن في هذا إثراء لحياتنا الأدبية والفكرية. وللنقد بعد ذلك دوره في تقويم هذا الحوار، والكشف عما قدمه.

ومن هذا المنظور وقع اختيارنا على المنهج البنيوي في تحليل النص الأدبي بعامة والنص التراثي بخاصة باعتباره من المناهج النقدية الوافدة من بيئات غريبة عن بيئتنا العربية. وكان قد تحمس له كثير من الدارسين، ومازالوا يتحمسون له ويدعون إلى تطبيقه على الدراسات الأدبية. ثم إنه قد مضى عليه عهد يتجاوز الثلاثين سنة وهي فترة كافية للتعرف عليه وعلى ما يمكن أن يكون قد قدمه للدراسة الأدبية. ومن أجل بلوغ هذه الغاية فإنه يحسن أن نقدم المخطط الذي نتبعه في معالجة الموضوع، وهو يشتمل على ما يلي:

I. الجانب المعرفي والتاريخي للبنيوية.
II. عرض أهم الجهود في تحليل النص التراثي وتقويمها.
III. خاتمة تقويمية عامة للمنهج.

وسوف نتناول فيما يلي كل نقطة من النقاط على حدة.

I. <u>الجانب المعرفي والتاريخي للبنيوية.</u>

وسنعالج في هذا الجانب عددا من النقاط، وسنكشف عنها تباعا:

1- مفهوم المنهج:

يتردد كثيرا استخدام كلمة المنهج في الدراسات الأدبية. وما نلاحظه في بعض هذه الاستخدامات هو ذلك الخلط أحيانا بين المنهج أو المنهاج بين الاستخدام اللغوي والاصطلاحي. فالمنهج أو المنهاج بالمعنى اللغوي يعني(الطريق) (4) أما المنهج بالمفهوم الاصطلاحي كما يعرف في الدراسة الأدبية والنقدية فليس معناه الطريق الذي تفيدنا به بعض المعاجم اللغوية القديمة، وإنما يقصد به: مجموعة الأسس المعرفية والطرق الإجرائية التي تتبع في التحليل أو الدراسة. وفي هذا يقول الدكتور جابر عصفور: "المنهج يعني الأسس النظرية للتفكير والوسائل العملية لدراسة أي علم " (5). ومعنى هذا أن المنهج يحتوي على مجموعة أو منظومة من التصورات والمفاهيم تشكل في مجملها أسسا معرفية أو نظرية ولكي تكون لهذه الأسس المعرفية أو النظرية صلة بالواقع الملموس فلابد من إتباع خطوات معينة في التطبيق. ولعل هذا ما عناه الدكتور صلاح فضل بقوله:" فالمفهوم المعرفي المؤسس للأدب هو النظرية. والمنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها ". (6)

ومما سبق يتضح لنا أن كلمة المنهج ذات دلالة عامة ولا خصوصية لها إلا من حيث الدلالة على العلم، وما يرافقه من طرق إجرائية في التحليل. ولهذا يمكن أن تنسحب على كل العلوم ذات الصبغة العلمية. وعندما يراد تخصيصها أكثر تربط بكلمة أخرى مثل القول: المنهج التاريخي، والمنهج النفسي، والمنهج الاجتماعي، وهكذا. وبهذا التوضيح لكلمة المنهج يمكن الانتقال إلى الشق الثاني لهذا المصطلح المركب وهو (البنيوية): Le Structuralisme فما هو مفهومها؟

2- مفهوم البنيوية:

لقد جرى العرف في التعرف على أي كلمة ذات المدلول الاصطلاحي أن يؤصل لها بالمفهوم اللغوي. واستشارة المعاجم اللغوية القديمة في مفهوم (البنيوية) لا يفيدنا فيها إلا بما يتصل بالبنية أو البناء والبني، وهي جمع بنية وأبنية، وفي هذا يقول ابن منظور: "يقال: بنية وهي مثل رشوة ورشا كأن البنية الهيئة التي بني عليها " (7) أما صيغة (البنيوية) فلا وجود لها في مثل هذه المعاجم وذلك يعود إلى أن البنيوية من الصيغ الاشتقاقية الجديدة المستعملة في لغة النقد المعاصرة وفي غيرها. وهي لا تبعد لغويا عن مفهوم البناء أو الهيكل أو الهيئة وجميعها ذات دلالة حسية. أما من الناحية الاصطلاحية فهي تعرف عند بعضهم بأنها (فلسفة) أو (مذهب) أو (اتجاه فكري)، وهي عند آخرين وعلى رأسهم ليفي ستراوس (منهج) كما جاء عند زكريا إبراهيم في قوله:

" والواقع أن الكثير من البنيويين- وعلى رأسهم العالم الأنتربولوجي الفرنسي- كلوديفي ستراوس- قد أعلنوا منذ البداية أن البنيوية ليست بأي حال من الأحوال (فلسفة)، وإنما هي مجرد (منهج للبحث العلمي)".(8)

ويهتم هذا المنهج بتحليل البناء أو الهيكل بصفة عامة دون تحديد لهوية هذا البناء. ولعل صفة العمومية في هذا التحليل هي ما جعلها صالحة لأي شكل من أشكال البناء

كأن يكون البناء الاقتصادي أو الاجتماعي ومنه البناء اللغوي والفني. كما جعلها من ناحية أخرى غير قابلة للتعريف الدقيق لأن أكثر تعريفاتها تنصب على وصف ما تقوم به من الناحية الإجرائية أو الوظيفية. ومن التعريفات التي قدمت لها في هذا الصدد ما ذكره جورج واطسون في كتابه (الفكر الأوربي المعاصر) وجاء فيه:

" البنيوية هي تحليل عام للعقل يزعم أصحابه أنهم يجدون سمتريات أو تماثلات وبالذات تعارضات ثنائية في معتقدات الأفراد والجماعات في سلوكهم". (9)

ويقول سماح رافع محمد في كتابه: (المذاهب الفلسفية المعاصرة): " فالبنائية تهتم أولا وأخيرا بدراسة العلاقات التي تربط جزئيات كل بناء، وتهتم بكشف الروابط القائمة بين الأبنية بعضها ببعض". (10)

ولما كانت هذه التعريفات تنصب على وصف الجانب الإجرائي للبنية فإن أكثر الدارسين الذين عرضوا لها اعتبروها (منهجا) وليست (فلسفة) أو (مذهبا).والسؤال بعد هذا، متى ظهرت البنيوية كمنهج في التحليل؟

3- نبذة عن ظروف نشأة البنيوية:

الحديث عن الظروف التي أدت إلى نشأة البنيوية فيه الكثير مما يمكن أن يقال، ولكننا سنركز في هذا الحديث عما نراه مفيدا وذا صلة وثيقة بالموضوع. وقد كان بالإمكان الاستغناء عنه لولا أننا نراه ضروريا في هذا المقام، وذلك بالنظر إلى اختلاف ظروف نشأة هذا المنهج عن ظروفنا، وما يترتب على ذلك من تعارض واضح في الجانب الإجرائي في تحليل النصوص.

وفي ظروف نشأة البنيوية، يتفق كثير من الدارسين على أن البنيوية جاءت نتيجة لظروف اجتماعية وثقافية وحضارية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كان المجتمع الأوربي في حاجة ماسة إلى إعادة البناء، والتعمير، وكانت الوجودية قد أدت دورها كنزعة إنسانية ذاتية، ولم تعد قادرة أو ملائمة لمرحلة البناء الجديدة. وفي هذا يقول الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه: (مشكلة البنية):

" وبعد أن كان الفلاسفة – وحتى عهد قريب- لا يتحدثون إلا عن (الوجودية) أو الذات والإنسان والتاريخ أصبحوا لا يكادون يتحدثون إلا عن البنية، والنسق، والنظام، واللغة. وهكذا عرفت ضفاف السين ما بين عام 1960 وعام 1966 مولد نزعة فلسفية جديدة أطلق عليها أهل الحي الخامس والحي السادس من أبناء العاصمة الفرنسية اسم البنيوية ". (11)

ومن هذا نرى أن البنيوية في اتجاهها العام هي نزعة مادية حلت محل النزعة الروحية والذاتية التي تمثلها الوجودية و التي يتزعمها سارتر في الفكر الأوربي حتى أواخر الخمسينات كما يقول جورج واطسون في كتابه السابق الذكر إنها جاءت " لتفسير جميع الحقائق البشرية أو على الأصح إنها على وشك أن تفسر كل شيء أو أنها

تملك المفتاح لمغاليق المعرفة البشرية كلها (12)" ويضيف: " و كان هذا هو سر جاذبيتها ". (13)

وما دامت البنيوية على هذا القدر من الكفاءة، في حل كل مشكل من مشكلات الإنسان المعاصر، فقد أقبل عليها دون تردد حتى صارت نمطا فكريا جاذبا في القرن العشرين أو موضة من موضاته كما يقول جورج واطسون. (14) ولعل هذا هو السر أيضا في إقبال الفكر العربي المعاصر على احتضانها والعمل على توطينها في البيئة العربية إلى جانب أربعة عوامل أخرى تدخل في السياق العام وهي:

أ – أن البلاغة العربية باعتبارها المنهج الذي كان سائدا في تحليل النصوص، قد أصيب بالجمود نتيجة لسيطرة النزعة المعيارية عليه، ومثلها في ذلك النقد.

ب- تخليص النقد مما كان يتضمنه من أحكام نقدية ذات طابع ذاتي والأمثلة عليه كثيرة، ولا ضرورة لعرضها هنا في هذه العجالة.

ج- عدم كفاءة المناهج السياقية من مثل المنهج الاجتماعي، والنفسي، في تحليل النص الأدبي وذلك بتركيزها على إعطاء الأولوية للمؤثرات الخارجة عنه.

د- التأثر بالمنهج اللغوي في دراسة اللغة الذي أرساه العالم السويسري دي سوسير من خلال كتابه الشهير(محاضرات في علم اللسان العالم) والذي ظهر بعد وفاته سنة 1916م. وكان قد دعا فيه إلى دراستها بطريقة موضوعية في ذاتها ولذاتها.

4- البنيوية بين الموت والانبعاث:

للأسباب السابقة، وتحت ظروفها الضاغطة، رحبت البيئة العربية بالمنهج البنيوي لأنها رأت فيه المنهج العلمي المناسب لدراسة الظاهرة الأدبية. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البيئة مقبلة على هذا المنهج، في محاولة منها لتطبيقه على الدراسات الأدبية، كانت البيئات الغربية التي أنتجت هذا المنهج تدير ظهرها له لأنه لم يعد صالحا بسبب عجزه عن حل المشكلات التي كان يعانيها الإنسان فيها. وكانت بداية التخلي عن هذا المنهج بعد الانتفاضة التي حدثت في فرنسا سنة(1968) (15) ثم كانت السنوات الأخيرة من السبعينات تمثل نهاية هذا المنهج. وبذلك أصبح هذا المنهج في ذمة التاريخ، ولا يكاد يذكره أحد إلا على أنه (كان) في الماضي، كما يقول جورج واطسون:

" أما اليوم فليس من المرجح أن تسمع الناس يتحدثون عن البنيوية في باريس إلا حين يشيرون إليها بوصفها من بقايا نظرية بالية... لقد انقرضت فترة البنيوية وبقيت اللفظة في مصطلحات المدارس فقط".(16)

وفي الوقت الذي أَبَّنَ فيه الناس البنيوية في الفكر الغربي المعاصر، وجدت البنيوية طريقها إلى الفكر النقدي العربي المعاصر، ووجدت من يتحمس لها، ويسعى بكل جهد إلى أن يجعلها الوصفة السحرية لكل الأزمات التي يتخبط فيها. وهذا يعني أن اتصالنا

بالفكر الغربي كان دائما يأخذ وقتا طويلا للنقل فقط أما قضية الهضم والتمثل فهي قضية سوف تأخذ وقتا أطول مما كان يتصور.

وعلى هذا الأساس كانت البدايات الأولى للتعرف على هذا المنهج في أواخر السبعينات، ومازالت الجهود فيه متواصلة بالرغم من أنه مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة. وما ذكره الدكتور: مؤيد عباس حسين في كتابه: (البنيوية) (17) الصادر سنة 2010، يكشف لنا عن مدى الجهود التي بذلت ومازالت تبذل حتى الآن في محاولة لتوطين هذا المنهج، والترويج له في الدراسة الأدبية على المستويين: النظري والتطبيقي. هذا بصرف النظر عن الكتابات المناوئة له، وذلك لعدم ملائمته للبيئة العربية. وليس من شأن هذه الدراسة أن تتعرض لمثل هذه الدراسات وإنما نحاول أن نقف عند بعض الجهود التي بذلت في دراسة النص التراثي.

II. عرض أهم الجهود في تحليل النص التراثي وتقويمها:

لا يجد الدارس المتابع صعوبة كبيرة في التعرف على الدراسات النقدية للنصوص القديمة وفق المنهج البنيوي لأن الكثير منها، مضت عليه سنوات ليست بالقليلة حتى أنه أتيح لكثير من الدارسين أن يقدموا وجهات نظرهم فيه. ويمكن الإشارة إلى بعضها فيما يلي مرتبة بحسب تاريخ ظهورها وكثافتها وأهميتها:

يأتي في مقدمة هذه الجهود دراسة جمال الدين بن الشيخ التي نشرت سنة 1977 بعنوان: تحليل تفريغي بنيوي لقصيدة المتنبي. (18)

- البنية القصصية في رسالة الغفران التي ظهرت سنة 1977، لحسين الواد. (19)

ولكمال أبى ديب مجموعة من الدراسات ظهرت تحت عناوين مختلفة هي:

1- جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر-. 1979. (20)

و للإشارة فإن هذا الكتاب يشتمل على دراسات للشعر القديم والحديث، وأخرى لإيقاع الشعر، غير أن أغلبها كان للشعر القديم.

2- الرؤى المقنعة - نحو بديل بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي- 1986. (21)

3- البني المولدة في الشعر الجاهلي، 1988. (22)

إضافة إلى كتابه في موسيقى الشعر، وقد نشره سنة 1974 تحت عنوان: في البنية الإيقاعية للشعر – نحو بديل جذري لعروض الخليل. ومقدمة في علم الإيقاع المقارن. (23).

وتتواصل الجهود على أيدي عدد من الدارسين الأكاديميين، وممن عملوا على تبني المنهج البنيوي، باعتباره الأهم أو الأصلح لدراسة الظاهرة الأدبية، ليقدم حسن البنا عز الدين دراسة بعنوان: التحليل البنائي للقصيدة الجاهلية، (24) في منتصف الثمانينات، وكانت موضوعا لنيل درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عين

شمس- بمصر-، ثم نشر جزءا منها في كتاب تحت عنوان: الكلمات والأشياء- التحليل البنيوي لقصيدة الأطلال- سنة 1989. (25)

وتقدم الباحثة: يسرية يحيى المصري، دراسة أكاديمية في منتصف الثمانينات لنيل درجة الدكتوراه، وموضوعها: بنية القصيدة في شعر أبي تمام (26) في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس- بمصر، ثم ظهرت مطبوعة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - بمصر سنة 1997.

هذا هو التوجه العام الذي كانت تتوخاه الدراسات الأدبية عامة، والنص التراثي خاصة، وما من شك في أن ما حققته هذه الدراسات من خلال تطبيقات هذا المنهج على مدى أكثر من ثلاثين سنة، لا يمكن لأحد من ذوي النظرة الموضوعية أن ينكره، وما قاله الدكتور عز الدين إسماعيل، وهو واحد من أكبر من خبر المناهج النقدية على مدى عمره، ليقف شاهدا على ما حققته هذه الدراسات، إذ يقول:

"لقد اثبت هذا المنهج كفاءته في الكشف عن المكونات الجوهرية للنص الأدبي، والنظام أو النظم التي تحكم تكوينه، وتضبط مكوناته ". (27)

ولعل نظرة بسيطة على الدراسات النقدية للشعر الجاهلي فقط، وفق هذا المنهج، تجعلنا نقتنع جزئيا أو كليا، بأن نظرتنا إليه لم تعد هي تلك النظرة السابقة. ولم يعد ذلك الشعر الذي عانى كثيرا من الأحكام السطحية المتعجلة، وذلك من خلال إعادة تشكيل الوعي به لإدراك القيم الجمالية فيه. وقس على ذلك ما تم إنجازه في الشعر العباسي وعلى شعر أبى تمام سواء على يد كمال أبى ديب في (جدلية الخفاء والتجلي) أم على يد الباحثة يسرية يحيى المصري في (بنية القصيدة في شعر أبى تمام). ويمكن إدراك هذا الفرق بين ما قدمه الآمدي في موازنته، وما تخلل ذلك من أحكام نقدية كانت تغلب عليها نزعة التعصب للقديم على حساب التجديد وكان من نتيجة ذلك أن قزم شعر أبي تمام وحكم عليه في كثير من الأحيان بالسطحية والابتذال. ولعل موقفه من الاستعارات الواردة في شعره، ووصفه لها بأنها استعارات مستقبحة (28) وهي تعد -بشهادة كبار النقاد – من أحسن ما يشهد لأبي تمام بقدرته على التجديد في الصورة الشعرية.

وعلى العموم فإن الدارسين قد انقسموا – في الأغلب الأعم- إلى قسمين من هذا المنهج. أولهما كان متشددا ورافضا من منطلق الخوف على التراث والغيرة عليه لكون هذا المنهج وليد البيئة الغربية، وفيه من الخطورة على التراث أكثر مما فيه من الفائدة، وفيه كذلك من الهدم أكثر مما فيه من البناء.

وفي هذا الرفض كانت تقدم في كثير من الأحيان، مسوغات لا تستمد من أسس هذا المنهج، ومن منطلقاته الفكرية، وطرقه الإجرائية في التحليل، وإنما تستمد من خارجه. أما ثانيهما فيرى أن تطبيقات هذا المنهج أثبتت عدم كفاءته.

والمطلع على من وجه إليه النقد في هذا المنهج، يجد أن الدكتور كمال أبى ديب هو أكثرهم جميعا باعتباره أكبر المتحمسين له، وأكثرهم غزارة وكثافة وعمقا سواء أكان

ذلك على المستوى النظري أم على المستوى التطبيقي، حتى سمي بأبي النظرية البنائية في النقد العربي. ويكفي لمن يريد التعرف على طبيعة هذا النقد الذي استهدفه واستهدف نظريته، أن يراجع ما كتب من مقالات تحليلية مستفيضة لأعماله التي سبقت الإشارة إليها أو لغيرها مما كتبه من دراسات وفق هذا المنهج للشعر العربي القديم والحديث والمعاصر، في مجلة النقد- فصول- التي بدأ صدورها مع بداية الثمانينات، سوف يجد مراجعة تحليله لكتابه: (الرؤى المقنعة) تحت عنوان: الرؤى المقنعة: منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (29) للناقد حسن البنا عز الدين، ويجد كذلك في أحد أعداد هذه المجلة دراسة تحليلية لفكره النقدي البنيوي بعنوان:

المناهج المبتورة في قراءة التراث الشعري (البنيوية نموذجا) (30) للناقد: محمد الناصر العجيمي.

أما من الكتب التي عرضت له ولنظريته أو لمنهجه بالتحليل، فيعد كتاب (البنيوية) للدكتور مؤيد عباس حسين، واحدا منها والقائمة طويلة ويضيق المقام لذكرها جميعا.

لقد وقف من تناول هذا الدارس بالنقد عند عدد من القضايا منها ما ينصرف إليه، وإلى ثقافته النقدية ذات النزعة (التغريبية) (31) ، وإلى أصول منهجه البنيوي، ومنها ما ينصرف على تطبيقاته. ففي ما يتعلق بالجانب الأول يمكن الإشارة إلى جملة منها فيما يلي:

1- الأخذ عليه أنه استمد هذا المنهج من الفكر الغربي، وحاول أن يطبقه على بيئة مختلفة في فكرها وثقافتها، وهو ما يوحي لنا بأن الرجل عربي المنبت غربي الثقافة، وما يدعو إليه من خلال منهجه يتضمن هدم الثقافة العربية وإحلال محلها ثقافة غربية. ومما جاء في هذا الصدد قول الدكتور مؤيد عباس حسين: "يمثل مشروع أبى ديب الاتجاه الألسني في النقد البنيوي ". (32)

ويضيف مبديا اعتراضه على هذا التوجه العلمي بقوله: وهذه البداية موفقه جدا، لو أخذت بنظر الاعتبار خصوصية الثقافة، وطبيعة تشكل أنساق التفكير العربي". (33)

وبالإمكان أن نتساءل هنا ما هو العيب في أن يعتمد هذا الدارس في تأسيس منهجه على أسس غربية؟ هل لدينا ما يعوض هذا المنهج أو ينوب عنه في دراسة النص التراثي أو النص الأدبي على وجه الإجمال، ويكون في مستوى كفاءته، ومستوى غيره من المناهج المستمدة من الثقافة الغربية؟ لقد صدق من شاطرنا في تساؤلنا بقوله: " ما العيب في أن نفيد من خيارات وممارسات الحضارات الأخرى ونرسى للأجيال من بعدنا نهجا جديدا في التفاعل يغدو بدوره صفحة من التراث. ونقدم مثالا على دينامية التراث والواقع ببعديه المحلي والعالمي في تفاعل جدلي كتراث جديد؟." (34)

وما دمنا لسنا في موقع يسمح بإنتاج دلالة جديدة بالمناهج المتاحة لدينا، وهي مناهج تقليدية، فما المانع في أن نستعين بخبرات الآخرين في إنتاج هذه الدلالة؟

2- يتهم هذا الدارس بأنه أخفى مصادره الغربية في التأسيس لنظريته النقدية. وهذا أمر غريب يناقض ما صرح به في مقدمات كتبه، ففي كتابه الذي عالج فيه البنية الإيقاعية للشعر العربي قدم لهذا الكتاب بدراسة موثقة عن علم الإيقاع المقارن. وكان هذا جزءا من عنوان كتابه كما أشرنا من قبل.

أما كتابه الضخم (706 صفحة) الذي يكاد يكون موسوعة في الدراسة البنيوية للشعر الجاهلي لأنه درس فيه نحو (150 قصيدة)، فإن ما جاء في مقدمته يقف شاهدا على أن الدارس لم يكن في نيته إخفاء هذه المصادر، فقد ذكر أبا البنيوية في فرنسا ليفي ستراوس، وذكر كتبه، ومنهجه في دراسة الأساطير وبخاصة كتابه: (الأنتربولوجيا البنيوية)، وذكر (بروب) وغيره من أعلام الفكر البنيوي. ولئن لم يذكر كل التفاصيل الدقيقة لما عرضه في تطبيقاته، فلربما كان ذلك راجعا إلى القراءة الكثيرة لهذا المصادر، ويمكن اعتباره من قبيل التناص. لنقرأ ما قاله قي مقدمة كتابه: (الرؤى المقنعة) لنعرف ما إذا كان يسعى إلى إخفاء مصادره أم أن ما ينسب إليه من تهم لا يعدو أن يكون مجرد تهم تقف وراءها أهداف غير بريئة:

" وإذا كان ليفي- ستراوس هو الألصق بالمشروع الذي أنميه، وكانت معطياته التحليلية ومصطلحا ته، قد لعبت دورا تأسيسيا في تطويري للمنهج البنيوي، فإن دراسته للأسطورة على درجة من التمايز تجعل المقارنة بينهما أمرا ضروريا لفهم عملي ولإعطائه حقه من المبادرة والريادة لكنني لن أقوم بمثل هذه المقارنة هنا، بل سأترك لغيري من الباحثين مهمة القيام بها". (35)

3- وجهت إليه مآخذ تتعلق بعدم استيعابه للثقافة الغربية التي استمد منها منهجه. وهذا الاتهام يتناقض مع سابقه من حيث الإثبات بأنه لم يكن سارقا ولا مارقا في التعامل مع هذه الثقافة. ولسنا هنا في مقام الدفاع عن هذا الرجل، ومحاولة تبرئة ذمته مما أخذه من غيره وما لم يأخذه فأعماله تدافع عنه، ولكننا نريد فقط أن ندعو إلى الإنصاف، والحكم بالعدل، فلئن جانبه الصواب في تفسير بعض القضايا الواردة في سياق تحليله مثل تلك الإسقاطات التي خلعها على تحليله، فإنه لا ينبغي، من ناحية أخرى، أن نظلمه لمجرد أننا نختلف معه في منهجه. ثم أين هو الدارس الذي طبق منهجا من المناهج النقدية المعاصرة، وألم بكل معطياته الفكرية وطرقه الإجرائية؟ فحتى أعلام هذا المنهج في أوربا وجهت إليهم مآخذ عديدة في هذا الخصوص.

هذه عينة من المآخذ التي وجهت إلى الدارس نفسه وإلى ثقافته ومكوناته الفكرية. ومنها ننتقل إلى الجانب الثاني الذي يتعلق بالمنهج وبتطبيقاته. ففي هذا الجانب نجد كثيرا من المآخذ، وليس في نيتها أن نستقصيها جميعا، وإنما نحاول أن نقف عند أهمها فيما يلي:

1- **التعامل مع أكثر من منهج:**

يؤخذ على المنهج الذي تبناه الدارس بأنه غير كفء لتحليل النص الأدبي بعامة، والنص التراثي بخاصة لأن الدارس كان يستعين في تحليله للشعر الجاهلي بعدد من المناهج. وهذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها لأنه اعترف في مقدمة كتابه السابق الذكر بأنه استعان في تطبيقاته للمنهج بمناهج أخرى كثيرة كالمنهج التاريخي، والنفسي، والاجتماعي وغيرها. وليس من شك في أن التعامل مع أكثر من منهج في تحليل الظاهرة الأدبية، قديمة، وحديثة، يعد مأخذا وجيها وذلك لما ينشأ عن هذا التعدد في المناهج من شيوع ظاهرة التلفيق، وهو أمر يؤدي حتما إلى التصادم والتعارض فيما بين الأسس والمفاهيم والمصطلحات التي تتأسس عليها هذه المناهج. ثم إن المنهج البنيوي نفسه نشأ على أساس أنه بديل للمناهج السياقية السابقة . ولهذا كان أبو ديب يلح في عناوين كتبه على القول: (نحو بديل) و(نحو بديل جذري). وإذا قبلنا هذا التعدد أو التلفيق القائم على جمع المتناقضات أو المتعارضات، فإن النتائج العلمية التي يتوخى التوصل إليها تكون بالضرورة غير علمية مهما حاول الدارس أن يجعلها علمية. وفضلا عن هذا فإن التعامل مع أكثر من منهج ينطوي من جهة على الإقرار بقصور هذا المنهج وعدم كفاءته، ومن جهة أخرى على الدعوة للعودة إلى المنهج التكاملي في تحليل الظاهرة الأدبية.

2- التحليل بالإسقاط:

كذلك، فإنه يفترض فيمن يختار منهجا معينا للدراسة الأدبية أن يلتزم بأسسه الفكرية وطرقه الإجرائية قدر المستطاع، ويعد هذا مبدأ عاما لا يجوز التخلي عنه أو التنكر له في الممارسة الفعلية لتحليل الأعمال الأدبية، غير أن ما يلاحظ على الدارس أبي ديب أنه خالف هذا المبدأ العام، ولم يلتزم به، وقد سجله عليه كثير من النقاد، ويتمثل ذلك فيما أطلق عليه (الإسقاط) في تحليله، كما جاء عند محمد الناصر العجيمي في قوله: "لعل أهم ما يتميز به تحليليه في هذا المستوى هو الإسقاط، ونعني به فرض معان قبليه جاهزة، وتحميل النص مالا طاقة له بحمله من دلالات. وهي ظاهرة تحفل بها دراساته التطبيقية....بمجرد وقوف الدارس على ملفوظ يجاري توجهه الفكري أو الأيديولوجي، وإلا أبحنا لأنفسنا أن ننطق النص بما شئنا، ونكسبه من الدلالات ما يهجس بخاطرنا، منتهكين بذلك النص والروح العلمية". (36)

وهنا يحق لنا أن نتساءل ما الفائدة من الهروب من المعيارية ممثلة في البلاغة والنقد القديم، إلى المناهج النصية المعاصرة، ثم نفرض بطريقة أو بأخرى معيارية جديدة تحت مسميات مخالفة للأولى.

3- تعميم الجزء على الكل:

يتصل هذا المأخذ بمآخذ أخرى في تطبيقات أبى ديب على الدراسة النصية للشعر الجاهلي ولغيره، وهو الاهتمام بالتحليل الجزئي (37) كالوقوف عند شطر من بيت أو بيت واحد أو بعض الأبيات، ثم السعي إلى تعميم الأحكام على كل أجزاء النص. ويمكن ملاحظة هذا من خلال كتابه: (جدلية الخفاء والتجلي) و(الرؤى المقنعة). وهذا يخالف

المبدأ الذي يتأسس عليه المنهج البنيوي وهو أنه لا قيمة للجزء إلا داخل الكل. والتحليل يقتضي تحليل كل مكونات النص لاكتشاف عمل كل جزء فيه ثم إعادة تركيبه لغرض المحافظة على وحدته، وقد أشرنا من قبل إلى الكيفية التي تتم بها عملية تحليل النص الأدبي، وما سجله بعض النقاد على الدارس في هذا الجانب يشكك في مدى القدرة على الوفاء بتطبيق الأسس المعرفية لهذا المنهج. ويقول في هذا محمد الناصر العجيمي: " وكذلك فإنه يخالف المبدأ الموظف في التحليل البنيوي والقائم على الربط بين الوحدات المنتشرة على امتداد النص المنتمية إلى مراتب مختلفة. وفي عملية تقوم في حكم (تودوروف) على وصل المتباعد وفصل التقارب يقتضي ذلك تفكيك النص وتجزئته ثم إعادة تأليفه على نحو يجلو المدى الخفي ويحدد منه آفاقه وطاقاته الكامنة " . (38)

4- تعدد مصادر المصطلح:

يعترف النقد بأن لكل منهج منظومته الاصطلاحية التي يتأسس عليها. والدارس المتمثل لمنهجه هو من يحاول أن يتعامل مع هذه المنظومة بقدر من الكفاءة المهنية في تحليل النص. ولكن ما يلاحظ على أبى ديب أنه كسر منظومة منهجه الاصطلاحية، بحشد هائل من المصطلحات التي لا تمت بصلة إلى منظومة منهجه. ومرد هذا إلى أنه تعامل-كما أشرنا من قبل- مع أكثر من منهج وأكثر من مذهب أو اتجاه أدبي أو فكري في التحليل. الأمر الذي أدى إلى قدر غير قليل من اللبس والغموض في توصيل خطابه النقدي بالصورة المتوقعة. ولا حجة هنا لما يمكن أن يقال إن قضية الفهم تقع على عاتق المتلقي وليس على الدارس، لأن الأمر هنا يتعلق بخرق النظام الاصطلاحي للمنهج، ولا علاقة له بشيء آخر. وهنا نتساءل ماعلاقة المصطلحات التالية: القصيدة الشبقية، (39) وعدمية اليأس، (40) وعبثية الفعل؟ (41) فالمصطلحان الأول والثاني نفسيان. وهنا تظهر لنا مفاهيم المنهج النفسي، أما الثالث فهو وليد النزعة الوجودية أو النزعة العبثية على وجه التحديد. وجميعها مستمدة من خارج المنهج البنيوي. وقد استغلها في تحليل النص.

لقد حاول أن يفك بعض الرموز الاصطلاحية في نهاية كتابه (الرؤى المقنعة) وأطلق عليها (إشارة تقنية) ، (42) ونبه في بداية حديثه عنها إلى أن الاتفاق بشأنها لم يتم بعد في العالم العربي مع أن ما ذكره معروف في منهجية البحث العلمي، ثم إن ما ذكر منها لا علاقة له بما ذكرناه سابقا مما يجعلنا نؤكد على أن قضية المصطلح قضية محورية ولا يجوز العبث بها. ولعل جزءا من هذا العبث هو المسؤول عن الصراع المحتدم بين الدارسين حول هذا المنهج.

هذا جزء قليل مما تم رصده وتسجيله على منهج أبى ديب أو على نظريته النقدية في تحليل النص التراثي. ولعل ما سجلناه، وهو يعتبر من المآخذ بالمفهوم المعياري، يعود إلى أن التجربة مع هذا المنهج كانت وليدة ولم يكن في الإمكان تجنبها في البداية، وهي سوف تتلاشى تلقائيا مع تزايد الممارسات، وتراكم الخبرات من خلال التعامل مع هذا المنهج. وقد وجدنا بالفعل وعيا أكثر عند الدارسة: يسرية يحي

المصري في كتابها عن شعر أبي تمام. فقد سعت في دراستها أن تتجنب كثيرا مما جاء عند أبي ديب، ويعود ذلك إلى أنها كانت صارمة في التعامل مع منهجها ونلمس هذا على وجه الخصوص في مقدمة كتابها، حيث حرصت فيها على تحديد مفهوم البنية وشرح طريقة تحليل النص، إذ تقول: فمفهوم البنية هو مفهوم العلاقات الثابتة التي تقدم الكل على أجزائه، بحيث لا يفهم هذا الجزء خارج الوضع الذي يشغله داخل المنظومة الكلية، وبهذا تكون دراسة البنية انحيازا إلى السكوني في مقابل التطوري." (43)

هذا هو التصور البنيوي الذي حاولت الدارسة أن تطبقه في تحليلها لشعر أبي تمام، ومنذ البداية نجد صدى لهذا التطبيق في تقسيم شعر أبي تمام إلى بنيتين إحداهما للبنية الإيقاعية، والثانية للبنية الدلالية، وهي تعتبر الأولى شكلية، والثانية مضمونية، وبهما تتحقق في نظرها البنية الضدية التي يتأسس عليها المنهج البنيوي. ففي حديثها عن البنية الإيقاعية حاولت أن ترصد أنساق هذه البنية، وتقدم جداول عنها بعضها للأوزان الشعرية، وأخرى للقافية. وبالرغم من اجتهادها في تقسيم البنية الإيقاعية لاكتشاف تلك الأنساق من داخل النص، فإنها، في النهاية، مازالت في هذا التقسيم رهينة النظرة التقليدية التي تقوم على ثنائية البنية الخارجية، والبنية الداخلية. وكان يمكن تجنب هذا التقسيم الشكلي لو أنها حاولت الغوص في تفكيك تفاعلات بنية النص، الأمر الذي يجعلنا نحكم على تحليلها بأنه كان مزيجا من المنهج التقليدي، والمنهج البنيوي، وهو مزج أضاع فرصة الإمساك بدلالة البنية الإيقاعية في شعر أبى تمام، ولاسيما التجديد في بنية هذا الإيقاع: لأنها لم تستطع اكتشاف الدلالة التي ينطوي عليها خروج أبي تمام على النظام الإيقاعي التقليدي سواء أكان ذلك على مستوى الأوزان (44) والتجديد فيها أم على مستوى ما يطلق عليه المخالفات تحت مسميات: الزحافات والعلل (45)، حيث اعتبرته من العيوب، كما كان الحال في التحليل التقليدي للنص، ولم تنظر إليه على أنه من قبيل الخروج أو الانتهاك الواعي من الشاعر كان القصد منه خلخلة البنية التقليدية والثورة عليها. ومن ثم جاء حديثها عن هذه الخروقات، دون دلالة غير الإيحاء بالإدانة لشاعرية أبى تمام.

أما البنية الدلالية فقد حاولت أن تكون وفية فيها لمنهجها البنيوي ولو من الناحية الشكلية كما رأينا سابقا. ويبدو ذلك من حديثها عن الجانب النظري للدلالة بين القديم والحديث قبل الدخول لعالم البنية الشعرية، لأن هذا التنظير يوحي بفرض الأحكام المسبقة على النص، وهو ما حصل بالفعل حيث أن البنية الدلالية لشعر أبى تمام جاءت باهتة في الكشف عن التجديد، ومضامينه، باستثناء لحمات أو نظرات متفرقة هنا وهناك في تضاعيف تحليل البنية اللغوية.

وفي كتاب الدارسة الكثير مما يمكن الوقوف عنده في الجانب التحليلي وفق هذا المنهج، ولكن المقام لا يتسع لذلك.

خاتمة

ربما اتضح لنا من خلال ما عرضناه من نقد للمنهج البنيوي في تعاطيه مع الظاهرة الأدبية بصفة عامة، والنص التراثي بصفه خاصة، أن هذا المنهج شق طريقة إلى البيئة العربية في جو من الجدل المحتدم للاعتبارات التي سبق ذكرها. ولا غرابة في هذا فهو من المناهج النقدية التي يختلف النظر إليها. ومن طبيعة الاختلاف أنه يثري الحركة الأدبية والنقدية ويطورها، ولكنه لا يقلل في النهاية من إحساسنا بالحاجة إلى هذه المناهج لتجديد رؤيتنا وتنمية خبرتنا بأدبنا القديم والحديث على السواء. وكما لاحظنا من قبل، فإن هذا المنهج قد لعب دورا مهما في تجديد صلتنا بالنص التراثي وقدم خبرة جديدة لم تكن موجودة من قبل في ضوء المناهج التقليدية السابقة.

ومن هنا تأتي أهميته في تحليل النص التراثي والتعرف على مكوناته وأنظمته وفق أسس علمية فيها قدر من الدقة والموضوعية والانضباط.

وهنا يمكن القول بأن ما قيل فيه، وما نسب إليه من قصور لم يكن مرده كله إلى هذا المنهج، وإنما مرده إلى عدم الهضم والتمثل الجيد له، ولو أن هذه العملية تمت على نحو جيد لأدى ذلك إلى نتائج مختلفة.

الهوامش

1- شوقي جلال: التراث والتاريخ، سينا للنشر. مصر.ط1. .1995

2- هذه الدراسة أعدت لتكون مداخلة للملتقي الدولي في جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية وكان مقررا له أن يقام في 23/21 نوفمبر 2011 في موضوع، تلقي النص التراثي في ضوء المنظور الحداثي، ولكنه أجل أو ألغي لأسباب مجهولة.

3- محمد الناصر العجيمي: المناهج المبتورة في قراءة التراث الشعري (البنيوية نموذجا). مجلة فصول – الهيئة المصرية العامة للكتاب- بمصر. مج 9 العددان 4/3 فبراير 1991، ص109.

4- ابن منظور: لسان العرب، مادة (بنى)، دار المعارف- بمصر (د.ت).

5-جابر عصفور: قراءة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، ط1 202 ص 274.

6- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، بمصر، ط1 (د.ت) ص11.

7- ابن منظور: المصدر السابق مادة (نهج).

8- زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، مكتبة مصر، مصر ط1(د.ت) ص23

9- جورج واطسون: الفكر الأوربي المعاصر، ترجمة مصطفى بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر. ط1 1980 ص47.

10- سماح محمد رافع: المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مذبولي، مصر. ط1 1973 ص 136.

11- زكريا إبراهيم: المرجع السابق ص 7.

12- جورج واطسون: المرجع السابق ص 54.
13- المرجع نفسه ص49.
14- المرجع نفسه ص58.
15- فؤاد زكريا: الجذور الفلسفية للبنائية ، الرسالة الأولى في الفلسفة -جامعة الكويت- حوليات كلية الآداب ، الحولية الأولى 1980ص 62.
16- جورج واطسون: المرجع السابق ص 48.
17- مؤيد عباس حسين: البنيوية، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق. ط1 2010.
18- ينظر: البنيوية لمؤيد عباس حسين السابق ص 202.
19- طبع في دار العربية للكتاب. تونس.
20- طبع دار العلم للملايين- بيروت، لبنان.
21- طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.
22- سلسلة الموسوعة الصغيرة- بغداد 1988.
23- طبع دار العلم للملايين بيروت- لبنان.
24- تراجع مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب –بمصر- مج 6 العدد 4 1986، ص217.
25- ينظر: البنيوية لمؤيد عباس حسين السابق ص 163 هامش.
26- تراجع مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب- بمصر- مج7 العددان: الأول والثاني أكتوبر 1986 ومارس 1987 ص 293.
27- تراجع مجلة فصول مج 6 العدد 4 السابق ص 217.
28- الآمدي: الموازنة بين أبى تمام والبحتري، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار المعارف- بمصر-. ط2 1972 ج1 ص261 .
29- تراجع مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العددان 1 و2 أكتوبر 1986، مارس 1987، ص 274.
30- تراجع مجلة فصول مج9 العددان 4/3 فبراير 1991 ص109.
31- ينظر مؤيد عباس حسين: المرجع السابق ص156.
32- المرجع نفسه 156.
33- المرجع نفسه ص 157.
34- شوقي جلال: المرجع السابق ص 147.
35- كمال أبى ديب: الرؤى المقنعة: (نحو بديل بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب)- بمصر- ط1 سنة 1986 ص6.
36-محمد الناصر العجيمي: المصدر السابق ص113.
37- لا يعني هذا أن الدارس كان يجهل ضرورة الاهتمام بالكل في التحليل، وإنما كان ينسى أثناء التطبيق هذا المبدأ العام في المنهج البنيوي بدليل أنه كان يؤكد عليه باستمرار كما جاء في قوله:" والمنهج البنيوي يرفض هذا التناول الجزئي، ويتهمه بالعجز والقصور- مؤكدا أن الظاهرة بحد ذاتها لا تعني، وإنما الذي يعني هو العلاقات التي تنشأ بين الظاهرة وبين غيرها

من الظواهر في النص، حين تشكل كلها ثنائيات ضدية لكل طرف منها خصائصه المميزة". جدلية الخفاء والتجلي ص 170.171.

38- محمد الناصر العجيمي: المصدر السابق ص112-113.

39- كمال أبى ديب: الرؤى المقنعة ص111.

40- المصدر نفسه ص387.

41- المصدر نفسه ص127.

42- المصدر نفسه ص 681.

43- يسرية يحيى المصري: بنية القصيدة في شعر أبي تمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب- بمصر- ط1 1997 ص 6.

44- المصدر نفسه ص 29-30.

45- المصدر نفسه ص40.